ALTRALANG Journal
e-ISSN: 2710-8619 p-ISSN: 2710-7922
Volume 5 Issue 3 / December 2023 pp. 449-462

الأنا والآخر بين الثّابت والمتغيّر في الرواية العربيّة المعاصرة قراءة في "عازف الغيوم" لعليّ بدر

زوليخة حنطابلي *
جامعة يحيى فارس المدية، الجزائر
hantabli.zoulikha@univ-medea.dz

استلم: 2023/02/01، **مقبول:** 2023/12/29، **نشر:** 2023/12/31

The Ego and the Other between Fixed and Changeable in the Contemporary Arabic Fiction A Literary Reading of «AZIF EL GHUYUM » Novel by Ali Badr

ABSTRACT: *This article studies the thesis/issue of the ego and the other in the contemporary Arabic fiction, but through focusing on the aspects of stability, reliability and differences between what was before and how it changed now . that is why, we have chosen the novel (The Player of the Clouds) «azif el guyum » by the Iraqi writer (Ali Badr) as a sample, which depicts the patriotic, nationalistic, religious journey of the musician (Nabil) escaping from his ego towards the other with all its Western and European representations, by extrapolating and analyzing the sources of the affection and influence between this character and the world to which he was directed. And the extent to which he sticks to his identity or abandons it. Finally, let us focus on the constant and the variables between the ego and the other in this text, and on the relationship between them .*

KEYWORDS: the ego, the other, the identity, the novel, the westerns, the Arabs, Ali badr.

الملخص: يقوم هذا المقال على قضية الأنا والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ولكن عبر التركيز على أوجه الثّبات والاختلاف فيها بين ما كان سابقا وما هو موجود الآن. واخترنا لذلك رواية (عازف الغيوم) للكاتب العراقي علي بدر التي تصوّر رحلة هروب العازف (نبيل) من الأنا – وطنيّة ودينيّة وقوميّة - نحو الآخر بكلّ تمثّلاته الغربية والأوروبية، عن طريق استقراء وتحليل مواطن التأثير والتأثّر بين هذه الشخصية والعالم الذي توجّهت إليه، ومدى تمسّكها بهويّتها أو تخلّيها عنها. لنقف في الأخير على الثّابت والمتغيّر في هذا النّص وعلى طبيعة العلاقة بينهما الآن.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، الهوية، الرواية، الغرب، ، العرب علي بدر.

*المؤلف المراسل: **زوليخة حنطابلي**، hantabli.zoulikha@univ-medea.dz

مقدمة

لطالما عبّرت الرواية عن كل ما يشغل الإنسان نفسيًّا وعاطفيًّا وفكريًّا وإديولوجيًّا ووجوديًّا... لهذا نراها تشغل كفنّ وكحقل للبحث والدراسة القرّاء والمبدعين والباحثين. فما من موضوع يطرأ على الأذهان وفق متطلّبات العصر وسياقاته، إلاّ وتكون الرواية مجالاً تعبيريًّا وتطبيقيًّا خصبًا له لاسيما بعد أن غدت ديوانًا للإنسانية ككلّ.

ومن ذلك موضوع الأنا والآخر الذي كثيرا ما طُرح خاصة بعد أن بدأت أولى عمليات التلاقح بين الأمم في العصر الحديث تأثيرًا وتأثّرًا وأخذًا وعطاءً.. ومن بينها الأمة العربية وما يقابلها من غرب، الذي قُدّم دائما في صفة "الآخر". ولأنّ العلاقات بين الشعوب العربيّة وتلك الغربيّة ما فتئت تزداد تشابكا وتعقيدا بحكم كل المتغيّرات السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة محليًّا وعالميًّا؛ عدنا مجدّدا لنطرح ذات الفكرة القديمة التي عبّر عنها يوما الكثير من الأدباء، أمثال توفيق الحكيم في "عصفور من الشرق"1938، سهيل إدريس في "الحيّ اللاتيني" 1953، الطيب صالح في "موسم الهجرة إلى الشمال" 1966، عبد الكبير الخطيبي في "صيف في ستوكهولم" 1990... وصولا إلى "عازف الغيوم" لعليّ بدر2016 والتي اخترناها كنموذج لمقالنا هذا.

وغايتنا من ذلك ليس إعادة ما قيل عن العلاقة بين الأنا والآخر ولا الوقوف على صورها ودلالاتها التي استفاض النقاد والدّارسون في الحديث عنها؛ وإنما محاولة لاستقراء أهمّ التغيّرات التي قد تكون طرأت على هذه القضية، بعد مرور عقود من الزمن أعادت ترتيب العلاقات والمفاهيم والمبادئ وحتى الديانات والأوطان... ولهذا عنونّا مقالنا **بالأنا والآخر بين الثّابت والمتغيّر** لنرصد أهم ما جدّ على المسألة من خلال رواية "عازف الغيوم" التي جاءت لترسم مشهدًا من مشاهد العراق الجديد بعد حربه الطويلة مع الديكتاتورية والتطرّف والإرهاب والأمريكان. تقودنا في ذلك تشكيلة من الأسئلة التي بقدر ما ستصعّب عملية البحث ستعبّد الطريق لها أيضا..

- كيف يمكن تحديد مسألة الأنا والآخر؟ وما حدود العلاقة بينهما؟
- كيف طرحت رواية "عازف الغيوم" للكاتب العراقي علي بدر هذه القضية؟ ولماذا عاد المؤلف ليطرحها من جديد؟ أيّ "أنا" صوّرته الرواية وأيّ "آخر" قدّمته؟
- ما الثّابت والمتغيّر بين الأنا والآخر في رواية "عازف الغيوم"؟

1. الأنا والآخر في الرواية العربيّة:

تنبثق مسألة الأنا والآخر من العلاقات التي تجمع بين طرفين أو أطراف قد تختلف في الجنس أو التاريخ أو الهوية أو الدّين... إلى غير ذلك ممّا يمكن أن يصنع خصوصيّة فرد أو جماعة بمقابل فرد أو جماعة أخرى، أيًّا كانت الأسس التي يقوم عليها مبدأ التغاير: عرقيّة، قوميّة، دينيّة، مذهبيّة، سياسيّة، اجتماعيّة، طبقيّة، أو غير ذلك...

فالأنا تعبير عن الذّات الواعية وشعور بالوجود الذّاتي المستمر والمتطوّر بالاتّصال بالعالم الخارجي (التنوجي، 1999، صفحة 133)، ويتجلّى الآخر في أبسط صوره في كونه مثيلاً أو نقيضا للذّات أو الأنا، وقد ساد كمصطلح في دراسات الخطاب سواء الاستعماري (الكولونيالي) أو ما بعد الاستعماري وكل ما يستثمر أطروحاتها، مثل النقد النسوي والدراسات الثقافية والاستشراق (البازعي، 2002، صفحة 21). فـ "الآخر يعني شخصًا آخر أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحّدة، وبالمقارنة مع ذاك الشخص أو المجموعة أستطيع (أو نستطيع) تحديد اختلافي (أو اختلافنا) عنها. وفي مثل هذه الضدّية ينطوي هذا التّحديد على التقليل من قيمة الآخر وإعلاء قيمة الذّات أو الهوية" (البازعي، 2002، صفحة 23).

أو العكس من ذلك تماما خاصّة إن اختلف أو اختلّ ميزان القوى بينهما، فتقلّ قيمة الأنا وتعلو قيمة الآخر متأثّرة في ذلك بمختلف العوامل التي تربط بينهما، "إنّ العلاقة بين الأنا والآخر محكومة بالزمان والمكان فموقف العربي من الآخر الغربيّ في العصر العباسيّ مثلاً يختلف عن موقفه منه اليوم، ذلك أنّ محدّدات الثقافة آنذاك تختلف، كما أنّ الظروف السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة

مختلفة أيضا (...) كما ينبغي للمرء ألاّ يُهمل العوامل النفسيّة والاجتماعيّة الداخلة في بناء صورة الآخر وتطويرها والتأثير فيها" (الشبلي، 2019، صفحة 192).

ونظرًا لأهميّة المسألة وحساسيّتها أيضا بدأ الالتفات إليها والتعبير عنها بشتّى الرؤى والمناظير فكريّة وفلسفيّة ونقديّة وأدبيّة... كالرواية التي دأبت مذ بدأت أولى مراحل الاتصال بين الشرق والغرب؛ على تصويرها والحديث عنها وعن قضايا الذات والآخر بمختلف تمثّلاتهما واختلافاتهما أيضا، وهو ما يذهب إليه كثير من النّقاد والمهتمين بشأن الرواية العربية حديثة ومعاصرة، كصلاح فضل الذي يؤكّد استئثار "العلاقة بين الشرق والغرب، بين العرب وأوروبا بالمحاور الفاعلة لعدد من الروايات العربية منذ بداية عهد العرب بالرواية (...) فكثيرا ما لجأ الروائيون إلى تناول شخصيات غربية مختلفة استأثر بعضها بلعب دور الشخصية المحورية في بعض الروايات، وانضم بعضها إلى الشخصيات الأبرز في ممارسة الفعالية الروائية في روايات أخرى" (فضل، 2003، صفحة 98).

وحلمي محمد القاعود الذي مازال - وفقه – "اللّقاء مع العالم الغربي يمثّل نقطة ارتكاز هامّة يتناولها أدبنا المعاصر من حين لآخر خاصّة في الرواية والقصة القصيرة (...) ويفرض نفسه بقوة شديدة على وجدان الأدباء المعاصرين، الذين يعيشون الأزمة الحضاريّة التي تواجه أمتنا" (القاعود، 1987، صفحة 156).

أمّا ماجدة حمود فأرجعت هذا الاهتمام إلى أحداث سبتمبر 2001 التي "تركت بصمتها على الضمير العربي (...) لذلك من الطبيعي أن يزداد طرح إشكالية الأنا والآخر في الرواية العربية، فقد زاد حرص الذّات العربية على تأكيد هويّتها والدفاع عنها في مواجهة تهمة الإرهاب و"الإسلام فوبيا" (حمود، 2013، صفحة 7).

وغيرهم كثير من النقاد والكتاب والروائيين الذين راحوا يقلّبون أوجه هذه المسألة ويصوغون صورها بشتى الطرق المتاحة، حيث ارتبطت هذه القضية بالرواية خاصّة لما لها من قدرة على التوصيف والتصوير واجتذاب المتلقي، بل لعلّها "من أكثر الفنون قدرة على تجسيد إشكالية الأنا والآخر، إذ تتيح الفرصة لصوت الأنا للتعبير عمّا يضطرم في الأعماق من مخاوف وآلام وأفكار، فتنطلق في نقد الذات والآخر معا" (حمود، 2013، صفحة 14)، ومن هنا رأينا الرواية العربية كثيرا ما تستلهم شخصياتها من هذين الضدّين وهما يتصارعان أو يتعايشان أو يتحاوران... إذ كان يمكن حصر ذلك في عدد من الصور هي:

- صورة الأنا المنبهر بالآخر.
- صورة الأنا المُبغض للآخر.
- صورة الآخر المتعالي.
- صورة الآخر المستعمِر.
- صورة الآخر/المرأة الغارقة في جمال الجسد ولذّاته.

وهي صور في عمومها جاءت نِتاجاً للسّياقات الحضاريّة والتاريخيّة (خاصّة الاستعماريّة)، التي جمعت بين أفراد الأوطان العربية وما يقابلهم من أفراد الدول الأوربية والغربية عموما، ولهذا سيطرت مشاعر الكراهية والحقد والعنصرية والدونيّة خاصة لمّا كان ميزان القُوى يقف بين (أنا) ضعيفة سياسيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا أمام (آخر) أثبت قوته وسلطته على كل ذلك، ونتيجة لذلك ظهر من يشكّك بصحّة هذا الطرح وهذه الصور أو يعتقد على الأقل بنسبيّتها، كونها نابعة بالدرجة الأول من ذاتيّة هذه الأنا تجاه هذا الآخر أو العكس بغض النظر عن طبيعة كل واحد منهما عرقيًّا وقوميًّا ودينيًّا وسياسيًّا... فمن المعلوم أن "هذه الصورة التي تصنعها المخيّلة للشعوب والثقافات الأخرى قد لا تكون صحيحة بالضرورة، بل إنّها أقرب للخطأ منها للصواب نظرا للتعميم الذي تتّسم به ولدور الظروف التاريخية التي يغلب عليها التنافس والحروب في صناعتها وصياغتها" (الحربي، 2019، صفحة 164).

ومع ذلك تبقى هذه المسألة على درجة من الأهمية لا يمكن معها التغاضي أو غض الطرف عنها، نظرا أولا لمدى حضورها المهيمن كتيمة روائية وقضية نقدية وحتى فكرية وفلسفية؛ وثانيا لكونها تكشف الخصائص العميقة لأيّ أمة في أعين أبنائها ومكوّنات هويّتها، ولذا كانت "دراسة صورة الآخر في الأدب العربي لا تُبرز الخصائص التي يُسبغها العرب على مخالفيهم والصورة التي يرسمونهم بها فحسب؛ بل تكشف في جانب كبير منها عن خصائص الهوية العربية في نظر الأدباء والعوامل الأهم في تكوينها والتي تميّز العرب عن غيرهم من الشعوب" (الحربي، 2019، صفحة 164)

ومن هنا نالت هذه القضية اهتمامًا كبيرا من الكتّاب والنقّاد معا، فجاءت كثير من النصوص الروائية لتصوّر حكاية الأنا بأعين الآخر أو الآخر بأعين الأنا أو العكس... حاملة في الوقت نفسه هموم الهوية والحضارة والحداثة، نذكر منها: (بعيدا إلى هنا) لإسماعيل فهد إسماعيل، (ربيع حار) سحر خليفة، (متاهات الأعراب في ناطحات السحاب) مؤنس الرزاز، (الحي اللاتيني) سهيل إدريس، (قنديل أم هاشم) يحيى حقي، (صدمة طائر غريب) كمال القلش، (الثنائية اللّندنية) سميرة المانع، (هجرة السنونو) حيدر حيدر، (في غيابها) نبيل سليمان...

كما خصّص عدد من النقاد جهودهم للتنظير لهذه المسألة وما تطرحه من أفكار وقضايا، تجاوزت الجانب الإبداعي والحكائي وصولاً إلى المعالجة الفكريّة والفلسفيّة. ومنها نذكر: (الآخر في الثقافة العربية) حسين العودات، (تمثيلات الآخر) نادر كاظم، (جدليّة الأنا والآخر) نجيب الحصّادي، (الشخصية العربية بين مفهوم الذّات وصورة الآخر) سيّد ياسين، (الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة) عصام بهي، (نحن والآخر) محمد راتب الحلاق، (صورة الغرب في الأدب العربي) غسّان السيد...

وإن أبرز ظهور للآخر في بدايات الرواية العربية التي رصدت أحداثها لهذه القضية، هو الآخر الأجنبي بوصفه مستعمِرا ومحتلاً بمقابل الأنا العربي بوصفه مستعمَرًا ومهاجرًا وحتى لاجئًا، لتتوزّع شخصية هذا الآخر بين المكان الأوربي والمكان العربي في ظل ثنائيّة علاقة الأثر المؤثّر بين الغرب والشرق، بين الانبهار والتمجيد وبين التحقير والتهميش تمثيلاً سلبيًّا أو تمثيلاً إيجابيًّا (جبار، 2019، الصفحات 27-28).

حيث إنّ أغلب الأعمال الروائية التي طرحت هذا الموضوع لم تستطع أن تنفلت من هذا الإطار الذي يحدّ الآخر في صورة المستعمِر والمهيمِن، وجارَتْها في ذلك كلّ الدراسات النقدية التي لم تكن بسبب العلاقة الأزلية بين الأدب والنقد سوى ظلّ لها. وبما أنّ الآخر قد أخذ هذه الصورة التي ارتبطت بالقوة والسيطرة والتحضّر أو كما وصفها صلاح فضل "تجسيد حيّ لفكرة الهيمنة الاستعمارية على المنطقة العربية خلال المرحلة الجديدة من مراحل الاستعمار" (فضل، 2003، صفحة 133)؛ فإنّ الأنا لن تكون سوى انعكاسًا عكسيًّا لها بكل ما تحمله من معاني الضّعف والاستكانة، ما يجعلها في الأخير تابعة لهذا الآخر تنبهر به وتسعى خلفه ولو اضطرّها الأمر للرحيل والهجرة.

ومن هنا "توزّعت الشخصيّات الغربية في الرواية العربية على اختلاف تواريخ صدورها بين مكانين رئيسين: الأول أوروبا كـ (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم و(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس و(موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح و(قصة حب مجوسية) لعبد الرحمن منيف. والثاني البلدان العربية أو الشرقية كـ (سباق المسافات الطويلة) لعبد الرحمن منيف و(مسك الغزال) لحنان الشيخ..." (فضل، 2003، صفحة 98)

وإذا كانت هذه النصوص قد اتفقت حول طبيعة الآخر ومواصفاته؛ فإنها قد تراوحت في تقديمها للأنا بين صور شتّى اختلفت بحسب درجة تقبّل هذا الآخر أو رفضه، مقاومته أو الاستسلام له، الانبهار به أو الحقد عليه، تقليده أو الإعراض عنه، السّعي خلفه أو الهرب منه... إلى غير ذلك من ردود الفعل الممكنة تجاهه والتي تصدر كاستجابة لأفعاله هو.

2. الأنا والآخر بين الثابت والمتغير في رواية "عازف الغيوم":

ترتكز رواية "عازف الغيوم" لعليّ بدر* على شخصية رئيسة وحيدة هو (نبيل) عازف التشيللو وعضو الأوركسترا الوطنية، حيث يتناوب السرد فيها بين الغائب والحاضر ليروي لنا حكاية (نبيل) الفتى الحالم بالموسيقى والمدينة الفاضلة وفلسفة الفارابي.. ليصطدم بواقع عربي وعراقي على وجه الخصوص أفرزته أوضاع كثيرة راحت تتتابع خلف بعضها: الحرب في المنطقة والاحتلال الأمريكي والسياسات القديمة والحديثة والتيارات المتطرفة والخلايا الإرهابية...

والرواية تصوير لمشهدين رئيسين واحد في العراق والآخر في بلجيكا وفي كليهما يتمّ تحطيم آلة التشّيللو التي يعزف عليها نبيل سمفونيات كلاسيكية ظنّ أن الجميع يفهمها ويشعر بها .. **"آه لو أنّ الناس تتكلّم بالموسيقى لا بالفم.. أي بلغة من دون فم"** (بدر، 2016، صفحة 21)، والمسؤول عن تحطيم الآلة نفسُه في المرّتين معا: الجماعات الإسلامية المتشدّدة التي أضحت تتواجد في كل مكان لتتكلم وتضرب وتقتل باسم الدين.. ففي بغداد **"شعر نبيل بالإذلال والإهانة (...) أخذ يتطلّع إلى وجهه وآثار الصفعات عليه. خلع قميصه الممزق ورماه على الكرسي ثم ذهب لينظر من الشباك لمصير آلته فوجدها قطعا متناثرة بين الأطفال، يحملون أجزاء منها وهم يركضون أو يقلدون العزف عليها وهم يضحكون"** (بدر، 2016، صفحة 25). وفي بلجيكا **"... خرج إلى الشرفة ليرى مصير التشيللو فرآه خشبا محطّما على الأرضية (...) ولم يكن هنالك من أحد غير البوّاب وهو يجمع الحُطام في كيس ليرميه في محلّ أزبال العمارة"** (بدر، 2016، صفحة 75).

وما بين المشهدين مقاطع سرديّة متفرّقة بعضها آني وبعضها الآخر استرجاعي لذكريات كانت تحضر بحسب ما يستدعيه سياق الحكي، غلب عليها في النهاية خطّ الرحلة من العراق إلى أوروبا هربا من جحيم المتشدّدين والمتخلّفين إلى المدينة الفاضلة كما كان يعتقد، أين له أن يعزف الموسيقى ويعيشها كما يريد.. **"سنذهب هناك، سنذهب إلى مدينة فاضلة تقع وراء البحار... هناك حيث يعيش الفنان فيها كما لو أنه يعزف الموسيقى في الغيوم"** (بدر، 2016، صفحة 36)

فبعد أن سيطرت (الطبقة الرثّة) كما يسمّيهم على أجزاء من بغداد وعلى الحيّ الذي كان ذات يوم حيًّا راقيًا؛ استحالت الحياة عليه وهو الذي يحلم أن يعيش ويعيش الآخرون معه كمعزوفة موسيقيّة متناظرة المقاطع ومضبوطة الأنغام والنّوتات، حيث لا نشاز هناك ولا اختلاف بين الأصوات... ولهذا **"كان يعتقد فيما مضى أنه يمكنه من خلال الموسيقى أن يغيّر الحياة. أن يجعل لحياة الناس التافهة معنى، أن يحوّل الحياة من عدم إلى مسرح كبير"** (بدر، 2016، صفحة 17). وما زادها استحالة عليه اعتداء مجموعة من (الملتحين) عليه وعلى آلته ضربًا وتهشيمًا، فجاء قرار الرحيل إلى الضفة الأخرى حيث يعيش الناس في حريّة.. رحلة استغرقت قرابة العشرة أيام من بغداد إلى تركيا إلى بروكسل في شاحنة لتهريب البشر.

بعدها يمكن حصر حياته في بلجيكا في ثلاثة أحداث رئيسة: حصوله على اللّجوء، تعرّفه على (فاني) وتحطيم آلة التشّيللو مجدّدًا ومن الجماعة أنفسهم، الذين وجدهم يعيثون فسادا حتى في أوروبا ويطالبونه بكفّارة لأخطائه تُدفع لهم، وهم سيسامحونه على ما ارتكب من آثام في حقّ نفسه مرة لأنه يعزف الموسيقى ومرة لأنه يأكل في رمضان!! ولكن **"الأمر محسوم بالنسبة له، لن يدفع درهما واحدا لهؤلاء المتشدّدين سواء في بغداد أو هنا. ولكن أي حظ هذا؟! فقد هرب من بلاده بسببهم وها هو يجدهم أمامه هنا"** (بدر، 2016، صفحة 60)

---

* علي بدر كاتب وروائي عراقي ولد عام 1964 ببغداد، درس الفلسفة والأدب واشتغل بالصحافة والترجمة. يصنّف من ضمن أحسن الكتّاب في العراق نظرا لغزارة إنتاجه وعمق تناوله للقضايا المختلفة.

أصدر العديد من الروايات مثل: بابا سارتر 2001، الوليمة العارية 2005، ملوك الرمال 2009، أساتذة الوهم 2011، الكافرة 2015... كما له عدة دراسات ومؤلفات أخرى جعلته يفوز بعدة جوائز كجائزة الدولة للآداب ببغداد 2001 وجائزة أبو القاسم الشابّي في تونس 2001 وجائزة الإبداع الروائي في الإمارات 2002...

لتنتهي الرواية نهاية ساخرة أو تراجيديّة لنبيل الذي راح يشارك في مظاهرة لليمين المتطرّف الرّافض للوجود الأجنبي لبلادهم وهو الأجنبيّ عنهم، ففي نظره أوروبا **"مدينة فاضلة، لكن المشكلة أن المهاجرين هم الذين يدمرّون فضائلها.. هؤلاء سيحوّلونها إلى أرض فساد وفوضى"** (بدر، 2016، صفحة 102).

ولكن إن كان (نبيل) لم يعترف أو لم يَرَ الاختلاف القائم بينه وبينهم عرقيًّا ودينيًّا وثقافيًّا؛ فإنّهم هم لم يروا فيه كما كان يتمنّى فكرًا متحرّرًا وتناغمًا مثاليًّا مع طريقتهم في الحياة، وإنما مجرّد وجه أسمر يصرّح بأصله الأجنبي.. **"وجه نبيل وجه مهاجر لا تخطئه العين. هو وحده الذي يعتقد أن الإيمان هو الذي يوحّد الناس لا ميثولوجيا الأعراق ولا ميتافيزيقا الألوان ولا الملامح"** (بدر، 2016، صفحة 102). فانهالوا عليه ضربًا وشتمًا ولم ينجه منهم سوى جماعة أخرى متطرّفة أيضا، لا يهم إن كانت إلى اليمين أو إلى اليسار أو إلى أي ناحية أخرى تنمو فيها اللّحى وتحكم، وفي اعتقادهم أنه بطل خرج ليردّ على المظاهرة الأولى بمظاهرة مضادّة ولوحده!! ليشاهد في اليوم الموالي **"صورته في صحيفة لوسوار محمولا على أكتاف السلفيّين وتحت الصورة: أحد السلفيّين المهاجمين لمظاهرة اليمين المتطرّف"** (بدر، 2016، صفحة 110).

هذا ملخص الرواية ومجمل ما دار فيها من أحداث وشخصيات وأمكنة، صورة حية وجديدة عن قضية الأنا والآخر في الرواية العربية، هذه القضية التي رافقت الرواية العربية من بداياتها ولا تزال حتى الآن، وهو أمر طبيعي عندما نلتفت حولنا ولا نجد شيئا قد تغير، فالأمة العربية لا زالت تدين بالتبعية للغرب والغرب لا زال يفرض سلطته وسيطرته عليها سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا... لهذا مازال الأدباء تثيرهم هذه العلاقة الغريبة بين ضدّين يصعب عليهما الالتقاء والحوار على طاولة واحدة متكافئة، وما زادها غرابة هو سعي الأنا نحو الآخر رغم تاريخ طويل من الصراعات جمع بينهما، وهو الطرح الذي تعيد صوغه رواية (عازف الغيوم) لعلي بدر.

فنبيل منجذب بشكل مرضّي نحو الآخر ممثّلا في أوروبا ككلّ بحضارتها وثقافتها وفكرها وفضائها، بل إنه يرى فيها الخلاص لروحه وقلبه وكلّ مشاكله.. **"آه.. لو لم توجد بلجيكا؟ ماذا كان يمكن أن يحلّ بي؟"** (بدر، 2016، صفحة 92)، بهذه الطريقة نراه يخاطب في الرواية المكان الذي هاجر إليه أو بالأحرى لجأ إليه طوعا، وبموافقة تامّة من حواسه وجوارحه التي لم تر ضيرًا في التخلّي عن كلّ ما كانت تملكه وتعيشه وتعرفه.. **"كان نبيل ينظر من نافذة السيارة وهي تغادر الحي، شعر برغبة متزايدة، بزخم كبير أن يترك هذه المدينة التي عاش فيها حياته، حيث بيت العائلة، الأصدقاء، الحبيبة الأولى..."** (بدر، 2016، صفحة 22).

لنلتقي ومن البداية - وبشكل صريح - بنموذج جديد لشخصية ترغب في قطع كل صلاتها مع الأنا بكل ما تحمله في طيّاتها من وطن وبيت وعائلة وقيم، نحو الآخر بكل ما يحمله أيضا من مبادئ وأفكار وأشخاص وفضاءات لا تمتّ بصلة له بل قد تصل حدّ النقيض معه. "فالآخر في أوضح صورة له مثيل الذّات ونقيضها" (الشبلي، 2019، صفحة 191)، إنه مثيلها في كونه شخصا أو إنسانا أو مجتمعا بأفكار وأفعال ورغبات وماضٍ وحاضر... ونقيضها في كلّ ما ذكرنا أيضا. فالإنسان الشرقي عموما بما يتّسم به من إسلام وعروبة يختلف اختلافا كبيرا عن الإنسان الغربي لاسيما الأوروبي في نظرته للحياة وطرائق عيشها، وفي كثير من المعاني التي تسيّرنا كالأخلاق والحرية والدين، ولعل هذا الاختلاف الذي يصل أحيانا حدّ التناقض هو ما يدفع (نبيل) وغيره من الشخصيات التي سكنت نصوصا روائية أخرى إلى الاهتمام بهذا الكيان المغاير والسعي خلفه، فمن المعروف أن "انشغال الأنا بالآخر يكون مدعاة لمزيد من الاهتمام والتشويق والفضول كلما كان هذا الآخر يتوفّر على أكبر قدر من عناصر الاختلاف، فمن طبيعة الإنسان سعيه وراء معرفة كل جديد ومختلف وغريب ومفتقد لديه" (فاسي، 2006، صفحة 9).

ونبيل افتقد الكثير في وطنه: الحرية والكرامة والحياة... فعندما أعلن لوالده عن رغبته بالرحيل برّر ذلك ببحثه – باختصار - عن حياة أخرى، لأنه لا يجد **"...أيّة حياة هنا"** (بدر، 2016، صفحة 8) فهو **"لم يعد له أصدقاء (...) ما عاد له أي مستقبل كعازف تشّيللو في هذا البلد، بل حتى علاقته مع أبويه شعر أنها لم تكن سوى علاقات شكليّة بلا جوهر.. بلا حياة، بلا محتوى، بلا عاطفة"** (بدر، 2016، صفحة 28)، إلاّ أن دافعه الكبير هو الموسيقى التي لم يعد قادرا على عزفها في بلده ومدينته بعد أن سيطر التخلّف والتطرّف والتديّن على كل شيء فيها، فأوّل ما واجهه بعد أن تغيّرت العراق كثيرًا عقب الحروب والنّكسات التي توالت عليها **"اعتراض الجيران، فقد فوجئ**

يومًا بعدد من أهل الحي الذين تجمّعوا أمام العمارة طالبين منه أن يكفّ عن إزعاجهم بهذه الموسيقى، فهم لا يستطيعون فهم هذا الصوت الغبيّ (...) صوت التّشيللو وهو يعزف كونشرتو ضوء القمر لبيتهوفن ! " (بدر، 2016، صفحة 19)

ليقطع حادث تحطيم آلته التشيللو آخر خيط يربطه بهذا المكان وبكل ما يحمله من هوية وانتماء وتاريخ وقيم... متوجّها بذلك من الأنا نحو الآخر هناك في بلجيكا التي اختارها ليولد فيها من جديد. فعندما "تُحرم الذات من تحقيق طموحاتها وآمالها في وطنها فإنّها لا تجد طريقا للتخفيف من سطوة القهر إلاّ الهروب من الوطن، بل إنها مع مرور الوقت تكفر به" (الشبلي إ.، 2019، صفحة 62)، وهو ما حدث لنبيل تماما.

وحتى لا يأخذنا الحديث كثيرا عن شخصية نبيل وما تفكر به وتشعر، وحتى لا نبتعد أيضا عن موضوع المقال ومنهجه كان لزاما علينا هنا أن نفرّعه إلى قسمين الثابت والمتغير، أي ما الذي شابه فيه (نبيل) غيره من الشخصيات الأخرى التي اختارت أن تسير هي أيضا على طريق الابتعاد والاغتراب عندما لجأت إلى الآخر وهربت من الأنا، وما الذي اختلف بحكم التغيّرات الكثيرة التي طرأت على الأمة العربية سياسيًّا وقوميًّا وحضاريًّا.. وكيف طرحت رواية (عازف الغيوم) هذه القضية.

أ. الثابت بين الأنا والآخر في (عازف الغيوم):

لم تكن شخصية (نبيل) أوّل من غادر وطنه نحو بلاد أخرى، فبرغم اختلاف الأسباب والدوافع لطالما كان موضوع الهجرة من الثّوابت في الرواية العربية، محكومة في ذلك بالعلاقة التي جمعت العرب بغيرهم من الأمم ولاسيما تلك التي حملت مفهوم الغرب كدلالة مناقضة لمفهوم الشرق خاصة في عصرنا هذا، "فالتبادل بين الشرق والغرب قديم، وإن هذين القطبين لم ينفصلا يوما عن دائرة الوحدة الإنسانية.. ما يجري في جهة منها لابدّ أن ينتقل إلى الأخرى بدافع التعامل البشري المثمر حينا والعدواني حينا آخر" (معوش، 1998، صفحة 85).

ومن هنا تعدّدت الهجرات والرحلات بين الشرق والغرب مولّدة عنها كثيرا من العلاقات بين الأنا والآخر، هذه العلاقات التي تنوعت واختلفت بحسب الشخصيات والنصوص الروائية التي صوّرتها، فمنها ما كانت علاقة استسلام وتماهٍ مع الآخر، ومنها ما كانت مقاومةً ونضالاً لإثبات الذّات وقيمتها، ومنها ما كانت سعيًا أو فرارًا... إلى غيرها من مفاهيم الهجرة والهرب والرحيل والمنفى والسفر. حيث يعدّ هنا أدب المهجر من مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب، وهي المسألة التي بدأت في الأدب العربي مع روّاد المهجر الأوائل الذين اتّجهوا من أوطانهم (سوريا، لبنان، مصر،...) إلى أوروبا وأمريكا مع إيليا أبي ماضي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهم... حيث "أعطت ملحمة الهجرة نماذج متعدّدة في الفكر والفن والحياة، من هذه النماذج من كافح حتى ظلّ عربي اللغة والشعور والبيان، واستسلم الآخر للغربة ولأمواج البيئة الجديدة" (معوش، 1998، صفحة 94).

لتستمرّ هذه الظاهرة وتزداد بروزًا ورسوخًا مع الحملات الاستعمارية التي غرست جذورها عميقا في البلدان العربية، كما يؤكّد ذلك الناقد المغربي جميل حمداوي بقوله: "لم تظهر رواية الأنا والآخر في أدبنا العربي الحديث والمعاصر إلاّ في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي مع التغلغل الاستعماري في العالم العربي والإسلامي قصد التحكّم فيه سياسيًّا، واستغلاله اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وإضعافه عسكريًّا وإعلاميًّا، وتغريبه دينيًّا وحضاريًّا وتشكيكه عقديًّا وفكريًّا" (حمداوي، 2011، صفحة 393). ما أبرز ثنائية (التقدم والتخلّف) وغرس في الإنسان العربي عقدة مستديمة من النقص تجاه الآخر الأوروبي والغربي عموما.

فزاد الاحتكاك بين الأنا والآخر لاسيما بعد هجرة بعض الأدباء والروائيين العرب الذين انطلقوا من ذواتهم في ممارستهم الأدبية والروائية كرافع رفاعة الطهطاوي وتوفيق الحكيم وطه حسين وسهيل إدريس وغيرهم... وهنا بدأ التعبير عن الأنا بمواجهة الآخر في استعلاءٍ تارة وانسحاقٍ تارة أخرى، فمعلوم أن وعي الإنسان بنفسه لا يبدأ إلاّ بوعي علاقته مع الآخر. فحين شاهد العرب الحضارة الأوروبية أدركوا مدى تخلّفهم، وحين لمسوا حرية الغرب أو تحرّرهم انتبهوا إلى القيود الكثيرة التي تشدّهم، وحين تحسّسوا مفاتن المرأة الغربية التفتوا إلى نسائهم باستغراب واستنكار أيضا !

ومن هذه المحطات التي ذكرنا تشكّلت دائرة من التيمات حصرت الرواية العربية فيها نفسها، فلا نكاد نعثر على رواية تتكلم عن الأنا بمقابل الآخر إلّا ووقفت عندها كرواية (عازف الغيوم) التي لم تخالف ذلك أيضا، ولهذا اعتبرناها من الثّوابت في هذه القضية والتي حصرناها في:

- الحضارة الأوروبية بمقابل التخلّف العربي.
- التحرّر الغربي بمقابل التشدّد الديني الإسلامي.
- المرأة الغربيّة رمز الجمال والجسد.

ولأنّ ما يعنينا هو روايتنا (عازف الغيوم) بشخصيتها الرئيسة العازف (نبيل) لن نعرّج على الروايات الأخرى بل سنكتفي بروايتنا فقط، ويمكن للقراء أو المهتمين بهذا المجال العودة إلى العناوين التي ذكرناها سابقا سواء كانت روايات أو دراسات نقدية للاطلاع أكثر.

و(نبيل) كما أسلفنا شاب عراقي يعشق الموسيقى ويمتهنها ويعتبرها عالمه المثالي الذي يتطلّع إليه ومدينته الفاضلة التي استمدها من فلسفة الفارابي، **"لقد رأى في الموسيقى عنصرا مهما في المدينة الفاضلة، ذلك أن فكرة العدل تأتي من فكرة التناغم في الموسيقى"** (بدر، 2016، صفحة 53)، فكيف له أن يعيش في عالم من الخراب والسوداوية والموت خلقته أجيال متعاقبة من القتلة والدكتاتوريين والمحتلين والإرهابيين... الذين راحوا يعيثون في أرض العراق فسادا.. لقد "جعل التاريخ العراقي الدموي خلال الأعوام الثلاثين المنصرمة الإنسان العراقي مشغولا بمحنة النجاة بنفسه من موت ظل يتهدّده كلّ لحظة" (إبراهيم، 2012، صفحة 8).

فبعد أن حطّمت جماعة الإسلاميين المتشدّدين - الذين كانوا قبل انهيار الحكم السابق محتالين ونشالين ومرتزقة – آلته التي يعزف بها؛ راحوا يطالبونه بالمال لبناء مسجد تكفيرا عن خطاياه.. **"اذهب إلى بيتك وسنأتيك بعد أسبوع، إن لم يكن معك المبلغ عليك أن تشتري كفنك معك"** (بدر، 2016، صفحة 33). ليتيقّن (نبيل) هنا أن المسألة أكبر من مجرّد اختلاف في الممارسة الدينية، بل هي اختلاف على الحق في الحياة ككل، ولأنه كان يملك القابليّة مسبقا للتخلّي والمغادرة هاجر دون أن يلتفت خلفه. "فعندما تصطدم الذّات بواقع مرير في موطنها الأصلي تلجأ إلى الهروب منه، الهروب من واقع مأساويّ إلى مجتمع الآخر الذي تتوافر فيه أسباب حياتها وحريتها" (الشبلي إ.، 2019، صفحة 58). وهنا بدأ الانجذاب نحو الآخر بكل ما يعنيه من حضارة وحرية وعدل وجمال وحب... كما كان يفكر (نبيل)، **"سنذهب هناك، سنذهب إلى مدينة فاضلة، تقع وراء البحار... هناك حيث يعيش الفنان فيها، كما لو أنه يعزف الموسيقى في الغيوم"** (بدر، 2016، صفحة 36).

وهذا ما يسمّى بالرؤية الانبهارية التي تعني "تلك النظرة الأولى للأنا وهي تتأمّل منجزات الآخر المماثل أو المخالف، تلك النظرة القائمة على الانبهار بحضارة الغرب والافتتان بتقدّمه وازدهاره" (حمداوي، 2011، صفحة 394)، حيث هناك من يُرجعها إلى حال الوهن والعجز التي تعيشها الذات في مواجهة الآخر. وهي الرؤية التي سبق لكثير من الروايات طرحها وإن كنّا نلمس فيها على رأي بعض الدارسين محاولة فهم واستيعاب عقلي ووجداني عميق للغرب دون التملّص من الانتماء إلى الشرق بإيجابياته وسلبياته (مباركي، 2013، الصفحات 7-8)، إلاّ أن (نبيل) في هذه الرواية قد تجاوز مرحلة الانبهار والاندهاش إلى مرحلة الهوس المرضي بالآخر ممثّلا في بلجيكا بشعبها وحضارتها وثقافتها ونسائها، فهو يدافع عنها حتى أمام البلجيكيين أنفسهم و**"أن عليه في هذا البلد أن يتكلّم عن شيئين فقط: أولا المأساة والتراجيديا في بلده. ثانيا: السعادة التي حصل عليها هنا"** (بدر، 2016، صفحة 92). سعادة تتمثل في سرير مرتّب وطعام وحمّام وامرأة أوروبية تمنحه نفسها كلما أراد واشتهى.

يعدّ الهوس (MANIA) أحد أنماط العلاقات التي قد تجمع بين الأنا والآخر ينتج عن إعجاب الذّات الشديد بغيرها، ويعرّف في علم النفس بأنه "حماس أكثر من اللّازم قد يبلغ حدّ المرض النفسي تجاه أمر أو شيء أو شخصية أو رغبة، يجعله يشعر بالنشاط والانشراح والسرور والبهجة، والرضا عن النفس والسعادة بالظروف التي يعيشها" (طه، 1982، الصفحات 477-478)، مثل (نبيل) تمامًا الذي

كان **"يشعر أغلب الوقت بالسعادة وهي تقفز من جوفه إلى عمق السماء"** (بدر، 2016، صفحة 81)، أو حين لا **"يتكلّم إلاّ عن سعادته بخلاصه من البلد الذي كان فيه، فقد وجد السلام والسرير المرتّب والحمام والطعام هنا"** (بدر، 2016، صفحة 92).

إلاّ أن أكثر ما كان يُبهج (نبيل) هو صديقته البلجيكية (فاني)، طبعا وأي شيء قد يبهج رجلا شرقيا أكثر من امرأة شقراء ! هذه الصورة النمطية التي دأبت روايات الأنا والآخر على تقديمها حتى لا تكاد تخلو رواية من شخصية نسويّة شابة تمتلك صفات جسدية تتمثّل بالجمال والجاذبية والسحر (الشبلي إ.، 2019، صفحة 200). وحتى رواية (عازف الغيوم) لم تخالف ذلك رغم امتداد المسافة بينها وبين أوائل الروايات التي كتبت عن الآخر منذ منتصف القرن التاسع عشر.

فالمكتبة العربية في مغرب العالم العربي ومشرقه تزخر بمجموعة كبيرة من الروايات التي تناولت صورة المرأة الغربية وعلاقتها بالإنسان العربي، والتي حاولت رصد اللقاء وكيفية قيام العلاقة بينهما وتشكّلها وتطوّرها ونهايتها (طيبي، 2016، صفحة 36)، فهي تعدّ من أكثر وسائل الجذب التي مورست أو مارسها هذا الأنا على نفسه مدفوعا في ذلك بمجموعة من الخلفيات الثقافية والاجتماعية والدينية، أين اتفقت أغلب الروايات على تقديم المرأة الغربية في شكل "الطريدة المُتاحة التي لا يُبذل في سبيل صيدها كبير جُهد أو كثير عناء" (طيبي، 2016، صفحة 320).

ومن ذلك روايتنا أيضا، ففاني تعطي نفسها وبيتها ومالها لنبيل حتى إنها تطوّعت لشراء آلة التشيللو التي رأته يتوق إليها بعد أن ترك خلفه هناك في العراق حطام آلته السابقة. وهي فوق كلّ ذلك **"جميلة.. ناعمة.. هشّة جدّا مثل لوحات الجماليين اليابانيين ذوي الألوان المدهشة"** (بدر، 2016، صفحة 66) ولهذا أحبها ! بينما **"العربيات مكتنزات.. ألوانهن ضاربة للسمرة ومربربات الأفخاذ والصدور بسبب أكل الحمص"** (بدر، 2016، صفحة 66)، ولا همّ لهنّ سوى الملابس وعلب المكياج وصبغ أصابع القدمين والبحث عن أبناء البرجوازيين. فنبيل مسحور تماما بشخصية (فاني) ما جعله ينقلب على كل امرأة سواها ولاسيما اللواتي ينتمين إلى نفس جنسه وقومه ودينه، وهي ما يُطلق عليه سرديا بالشخصية الجاذبة.

والشخصية الجاذبة هي "تلك التي تستأثر باهتمام الشخصيات الأخرى وتنال من تعاطفها بفضل ميزة أو صفة تنفرد بها عن عموم الشخصيات في الرواية (...) كالجمال عند الشخصيات النسائية" (بحراوي، 1990، الصفحات 269-270)، و(فاني) تملك الكثير منه خاصة إذا علمنا أن لا حدود لها تلتزم بها في إظهار جمالها وفتنتها، فكيف لنبيل الرجل الشرقي أن يمسك نفسه عنها وعن الاستسلام لها كليّة ومن البداية.. فقد **"تملّكه حبّ النظرة الأولى، مثل أي شرقيّ لا يحتاج في هذه الحالة أن يحسب أيّ حساب عقليّ مع جسد نصف عارٍ"** (بدر، 2016، صفحة 65).

وما زادها تملّكا هو ضعفه وعجزه عن قضاء أبسط حوائجه في بلجيكا بعد أن تخلّى عن وطنه وأصله وهويته، **"لقد تحوّلت فاني بالنسبة له إلى يده وقدمه، فهي التي تحلّ له مشاكله الإدارية مع الكومون، هي التي تتكلم مع البنك ومع الشرطة والضريبة (...) لقد أصبحت مثل مصباح كهربائي لدى بدويّ في صحراء مظلمة"** (بدر، 2016، صفحة 81). إلاّ أن ما طغى عليها أكثر هو جانبها الجسدي الذي قدمته ومن أول لقاء لهما.. **"فحين طلب منها أن تقضي الليل معه في شقّته، لم تعتذر وتقول له: لا، لا يمكن.. ليس من الليلة الأولى. إنما ارتدت معطفها بسرعة، وضعت شالها حول رقبتها، حملت حقيبتها، وضعت يدها بيده وذهبا سريعا إلى منزله"** (بدر، 2016، صفحة 67). ولهذا عُدّ مظهر المرأة بوصفها شخصية جاذبة عنصرا مهمّا قد يغلب على العناصر الأخرى، عن طريق إثارة عنصر الإغراء لديها والذي يجعل الشخصيات الذكورية تركّز النظر عليها ولا تلتفت لغيرها. (المحاسنة، 2012، صفحة 804)

ومن هنا يخضع تصوير المرأة الغربية في الرواية العربية حديثة ومعاصرة لرؤية جسدية خالصة "فلا نظنّنا بمبالغين إذا ما قلنا إن من النادر أن نجد شخصية نسوية غربية في الأعمال الروائية العربية سويّة أو متّزنة أو شريفة" (كاظم، 2013، صفحة 80)، وهو نفس ما طرحته رواية (عازف الغيوم) لعلي بدر، لهذا يمكننا اعتباره هنا من الثوابت التي تقوم عليها العلاقة بين الأنا والآخر.

ب. المتغيّر بين الأنا والآخر في (عازف الغيوم):

ننطلق في آخر جزء من هذا المقال بسؤالنا عمّا تغيّر في رواية الأنا والآخر، وإن كان طرحُها لهذه القضية قد تبدّل أم لا يزال كما عهدناه يتخبّط بين عجز الذّات وتفوّق الآخر، الانتصار للوطن أم الاستسلام للمنفى، الوفاء للهويّة أو الركون للاغتراب؟...

إنّ قارئ (عازف الغيوم) للكاتب العراقي علي بدر لا يحتاج إلى أي تريّث أو تعمّق في ثناياها ليحكم على موقفها الصريح من كلّ ما ذكرنا، إنها تضرب عرض الحائط بكل ما له علاقة بالأنا والهوية والدين والثقافة العربية الإسلامية، عبر شخصيتها الرئيسة (نبيل) التي راحت تتغنّى بحضارة الآخر وطرق حياته، مهاجمة في الوقت نفسه التاريخ والوطن والدين الذي تنتمي إليه معلنة عن اغترابها التام والكامل. و"الاغتراب في الرواية العراقية موضوع شغل المجتمع العراقي وعاشه العراقيون بمرارة وقسوة كبيرة وبانطباعات متغايرة ومتضاربة أحيانا، وقد شكل جزءا مهما من حياتهم واهتماماتهم" (مطير، 2013، صفحة 1)، نتيجة ما عانوه من صراع سياسي دموي، معارضة مسلّحة، انقلابات عسكرية، حصار وحروب واحتلال... كلّ هذا أفرز نمطين من السرد: الأول مكتوب في ظل الديكتاتورية والثاني مكتوب في ظل الحرية في المنفى (إبراهيم، 2012، صفحة 3)، وعلي بدر كاتب روائي مهاجر يقيم في بلجيكا نفسها التي استعارها فضاءً سرديًا بديلا لنبيل. حيث إن هذا التزاوج في الهجرة والمنفى بين الكُتّاب وشخصياتهم جعل بعض النقاد يربطون بين مواقف الشخصية الروائية ومواقف وأفكار مؤلفها، كما يذهب إلى ذلك الباحث العراقي كاظم عبد الله، فهو يرى أنّ "الكثير من هذه الروايات هي ثمرات لتجارب حقيقية لكتّاب مع الغرب والغربيين، وتعلّقا بذلك يكون هؤلاء الروائيون هم وراء الشخصيات التي تقدّمها الروايات، فقد كان أبطالهم غالبا مثقفين وعليه فهي تصلح تماما لتقديم مقولات ورؤى عمّا يتعلّق بلقاء الشرق والغرب هي أصلا للكُتّاب أنفسهم" (كاظم، 2013، صفحة 86).

وإذا أردنا حصر أهمّ التغيّرات التي رصدناها في هذه الرواية وجدنا:

- الصراع مع الذات، أو صراع الأنا مع الأنا بمقابل التصالح التام مع الآخر.
- علاقات عبثية مع المكان، حيث الاغتراب في الوطن والألفة في المنفى الذي كان اختياريًّا هنا.
- العِداء المباشر للدين والوطن وكل الثّوابت الأخرى.

حيث إنّ أوّل ما طالعتنا به الرواية هو مغادرة نبيل للعراق محدثا قطيعة تامّة مع مكان الانتماء الأول، دون حسرة أو تردّد كما يُفترض أن يكون في الحالة العادية، **"ابتهج نبيل وارتبك في الوقت ذاته لرحيله عن هذا المكان، حمل حقيبته، أطفأ التلفزيون، التفت مُلقيا نظرة أخيرة على شقّته وهبط سريعا إلى الأسفل حيث كانت السيارة بانتظاره"** (بدر، 2016، صفحة 14). وكأن أشياءه التي يغادرها الآن من تلفزيون وشقة وحي هي آخر وشائجه مع وطن وحياة كاملة، دون أن يعنيه مثلا وداع عائلته أو أصدقائه وذكرياته التي قرّر التخلي عنها كلها دفعة واحدة.

فهو لم يكن يعرف من وطنه إلاّ مدينته التي كانت تستحقّ منه على الأقل هو وكاتب النص أن يذكرها باسمها، لكنه فضّل أن يتركها من دون اسم أو وسم أو حتى عاطفة أخيرة يمنحها لها وهو يغادرها إلى الأبد، بل إنّه راح يسخر من نفسه لما توهّمه من حب أو تعلّق اتجاهها.. **"كان نبيل فيما مضى متشرّبا لا يعرف كيف بهذا الإيحاء، أي إيحاء أنه لا يمكنه العيش من دون بلده، وكان يفكّر على شاكلة كلّ الناس غير المجربين أن سماء وهواء وجمال مدينته أمور لا جدال فيها. ولكن هذا الأمر هو أحمق تماما"** (بدر، 2016، صفحة 22). كما لم يكن يعرف من مدينته هذه سوى الحي الذي يقيم فيه والذي شهد تحطيم آلته الموسيقية ومدينته الفاضلة التي كان يحلم بإقامتها، وهو ما جعله مكان هروب لا غير.. ولهذا كان وصفه باردا خاليا من أي شعور بالحميمية أو على الأقل بالارتباط..

"ألقى آخر نظرة على الحيّ: عمود الكهرباء في الركن وبيتان كانا جميلين فيما مضى وأصبحا شبه متداعيين، ودكان امرأة عجوز مسيحية بعد سفرها والتحاقها بأهلها. أمّا العمارة التي يقطنها هو فهي الوحيدة المُضاءة بمولّدة كهربائية صغيرة، ذلك لأنّ الحي معتم لانطفاء الكهرباء فيه" (بدر، 2016، صفحة 16)، ولهذا شعر **"وهو جالس في سيارة الهرب بالارتياح لمفارقته هذا الحيّ الذي أهانه وأذلّه"** (بدر، 2016، صفحة 17).

إنّ القراءات المتعدّدة للرواية العراقية تضعنا أمام إشكالية البحث عن هوية المكان العراقي باعتباره مكان أزمة أو مكان اغتراب، أو حتى مكانا تعرّض لكثير من التشوّهات جرّاء موجات العنف السياسي والاجتماعي والحرب (شاكر، 2020، صفحة 3)، لهذا كانت العلاقة بين (نبيل) والمكان الذي ينتمي إليه علاقة تنافر وصدام، فهو قد انطلق من ذات الظروف وأكثر بعد سيطرة الجماعات الإرهابية للمكان أيضا، إلاّ أنّ ذلك قد تغيّر تماما بمجرّد وصوله إلى بلجيكا وإقامته في عاصمتها بروكسل، فالاغتراب تحوّل إلى تآلف.. والضغوط إلى راحة.. والعنف والعدائيّة إلى توافق وتحضّر وثقافة فنيّة عالية... ما جعله يعترف **"أنا هنا أجد نفسي أكثر تآلفا.. أكثر انسجاما مع هذا المجتمع ممّا كنت عليه هناك.. كنتُ أشعر بأنّي غريب هناك أكثر من شعوري بأني غريب هنا.. بل أقول لكِ إنّي لا أشعر هنا بأنّي غريب أبدا"** (بدر، 2016، صفحة 96).

فمدينته المجهولة التي لم تستطع أن تمتلك اسما في الماضي أضحت الآن واضحة المعالم والأسماء والصفات، يعرف شوارعها ويحفظ مقاهيها وساحاتها وحتى أسماء زوارها ونُدُلها.. **"أخذ نبيل يعرف بروكسل مثلما يقرأ كتابا (...) فهو يذهب كلّ يوم مع فاني أو وحده إلى بارات ومقاهي بروكسل، لتبقى هذه المدينة الجميلة التي آوته حاضرة دائما في روحه وفي ذهنه"** (بدر، 2016، صفحة 83). وحتى شققه التي سكنها سواء هناك أو هنا لم تعد تعني له شيئا بعد أن سكن شقّة (فاني) التي **"تروقه كثيرا، فهي في حيّ من الأحياء الثريّة التي يقطنها في العموم بلجيكيّون أصليّون أكثر ممّا تروقه شقّته الفقيرة في حي المهاجرين"** (بدر، 2016، صفحة 80).

ولعلّ ما زاد هذه المدينة جمالا في عينه تحرّرها في كلّ شيء ومن كلّ شيء، فلا دين يضبطها ولا أخلاق تسيّرها ولا قيم أو أعراف تسألها أو تسائلها... له أن يثمل وقت ما أراد ويمارس الحب كيفما يشاء ويقضي الوقت على أبواب المقاهي والحانات، يراقب الفتيات الغارقات في الجمال والفتنة والإغراء.. **"كان يتطلّع بسرور لقضاء ساعة أو ساعتين في مقهى البلغا (...) كان الوهج الوردي الذي يغمر المكان ينبعث عادة من الطالبات اللواتي يتجمّعن قرب المدخل كل يوم تقريبا، وفي الليالي الماطرة ينتشرن داخل المقهى. فلا يعود المكان دافئا ووردِيًّا فحسب، بل تغمره رائحة العطر أيضا"** (بدر، 2016، صفحة 87).

بل إنّها من أهم الأسباب التي دفعت (نبيل) للهجرة بعدما سمعه من عمه المقيم في روسيا عن الحياة المتحرّرة في أوروبا.. **"قال له عمه إنّ مشهد الغزل في أوروبا هو مشهد عام في كل مكان. وربما من الأشياء التي دفعته أن يقوم بهذه الرحلة الخطرة هو تجريب هذا النوع من الشعور.. مشاعر الحب في الشارع أمام الجميع دون خوف أو رهبة"** (بدر، 2016، صفحة 48).

لتتبعها في ذلك مشاعر التخلّي عن المبادئ والقيم والهويّة، فبمجرّد ما وطئت قدماه أرض (الآخر) حتى بدأ في الانسلاخ عن (الأنا)، **"نظر إلى شواربه، تساءل هل يحلقها؟ أم يبقيها؟"** (بدر، 2016، صفحة 56)، كما طار عقله خوفا عندما سمع صوت الصلاة يتردّد من أحد غرف المهاجرين الآخرين.. **"كان الصوت واضحا، مخارج الأصوات ترنّ في الغرفة المجاورة، شعر باليأس، رمى نفسه فوق الأريكة بحزن. فقد أطاح هذا الصوت بالمقدار القليل من الأمل الذي كان عنده، وقد كان قلقاً وحزينا لئلا يكون في بلجيكا"** (بدر، 2016، صفحة 54). وأخيرا لمّا سأله أحدهم "**ألست مسلمًا؟ ارتبك وقال بعد تردّد: نعم. نعم. أنا مسلم (...) وكيف تأكل يا رجل؟ نحن في رمضان، ألا تعرف رمضان؟ نعم! ولكن، رمضان في بلجيكا؟"** (بدر، 2016، صفحة 59)

إنّ هذه الرواية تجاهر وبشكل مباشر عبر شخصيتها الرئيسة (نبيل) بعدائها تجاه الدين وتعتبره تسلّطا غير مبرّر باسم الإله، بل إنها تدعم الفكرة التي تربط بين الإسلام والإرهاب.. **"لو كان المسلّحون أو غيرهم قد طلبوا منه بناء خمّارة سيقدّم لهم كلّ ما له من مال من دون ندم، أمّا جامع فالأمر بحاجة إلى تفكير. ذلك أنّ جميع الإرهابيين قد خرجوا من الجامع، لم يخرج إرهابي واحد ليفجّر نفسه من خمّارة"** (بدر، 2016، صفحة 35)، وحتّى التخلّف والعُقد وكل المشاكل التي أضحى العالم العربي غارقا فيها، فكلّ تصرفات (نبيل) وأفكاره تسير في هذا الاتجاه، وحتّى تستقيم له الأمور كان عليه أن يوجّه دفّته نحو الآخر فيتكلّم بلسانه وينظر برؤيته ويدين بعقيدته التي لا لون لها ولا شكل... وحتى موسيقاه ومدينه الفاضلة لا يمكن أن تتحقّق إلاّ هناك في أوروبا..

لقد طرح السرد العربي موضوع الهوية السردية المتحوّلة، فالجماعات تتعرّض لتحوّلات قيميّة كبرى تدفع بها لاكتساب هويّات جديدة والتخلّص من القديمة، ويستعير الأفراد أقنعة يتنكّرون بها من أجل تخطّي الصعاب التي يواجهونها (إبراهيم ع.، 2011، صفحة 149)،

ولكن القناع يبقى قناعا ولا يمكن له أبدا أن يحلّ محل الحقيقة حتى وإن كانت مشوّهة، فنبيل لم يكن في نظر الآخر سوى لاجئ أسمر يشي لونه بأصله حتى وإن حاول التصبّغ بألوانهم والصراخ بصوتهم.. فهو مرّة **"مجرّد لاجئ استولى على محفظة نقود صديقته وأخذ يبدّدها"** (بدر، 2016، صفحة 89) ومرة أخرى عثة وجرذ وحثالة.. وعبثا **"كان عليه أن يشرح لهم أن لون البشرة، المظهر والهيئة لا علاقة لها بالأفكار(...) ما الذي جاء بك إلى بلدنا، أيها العثة؟ حثالة.. أنتم حثالة.."** (بدر، 2016، صفحة 104)

وهو الذي انضمّ إلى المظاهرة المُطالبة بطرد المهاجرين من بلجيكا، ناسيًا أو متناسيًا أنه هو نفسه مهاجر لا غير يقيم عالة على صديقته! ليصدق الرأي القائل أن "لا فرق فيما يتعلّق بالآخر بين تراثه الرأسمالي وتراثه الاشتراكي، فكلاهما تراث سيطرة وهيمنة وتراثٌ عُنصري" (عطية، 1997، صفحة 102). كما صدق الرأي الآخر الذي يرى بأن أدبنا المعاصر لازال يبحث عن نفسه وعن ذاته، على بصيرة أحيانا وعلى غير هدى في معظم الأحيان، ومن هنا فقد طلع علينا كثير من الأدب شعرا ونثرا فاقدا لروحنا الشعبية، متجرّدا من ملامحنا القومية وخصائصنا الذاتية مما جعله بلا هوية (القاعود، 1987، صفحة 9).

لقد اختلف كثيرا الطرح في الرواية العربية المعاصرة وهي تتكلم عن الأنا والآخر، إذ لم تعد تلمّح لاختلال ميزان القوى بين هذين القطبين، ولا عادت تعتمد الرمز والإيحاء في العلاقة بينهما التي غالبا ما تكون علاقة استسلام وانهزام من طرف الذات لصالح الآخر، إنها الآن تسعى إليه بكل ما أوتيت من رغبة وقوة وتتعلّق به وتذوب فيه في انسحاق وتميّع تام، ما يعني أن مركز الثقل والاهتمام قد تغيّر بعد أن اتّخذت الرواية المعاصرة خطًّا عكسيًّا، ففي "الروايات السابقة كان الخط المألوف هو من مركز أنا والنحن أي من الوطن، أما في الروايات الجديدة فالخط يبدأ من مركز الآخر" (العينين، 1999، صفحة 819).

خاتمة:

يمكننا أخيرا أن نقول ما يلي:

1. تُعدّ قضيّة الأنا والآخر مادّة سرديّة مهيمنة على الرواية العربية حديثة ومعاصرة، وذلك مذ بدأت أولى علامات الاحتكاك والتلاقح بين الشرق والغرب، لاسيما بعد الحملات الاستعمارية الأوروبية.
2. تأتي قضيّة الأنا والآخر في الرواية العربية وفق ثوابت ومتغيّرات، فرضها السياق الحضاري والتاريخي الذي كُتبت فيه هذه النصوص الروائية، فالطرح الذي قدّمته الروايات الأولى بدأ يختلف شيئا فشيئا مع الروايات التي جاءت بعدها لاسيما المعاصرة منها.
3. ترتكز قضية الأنا والآخر على مجموعة من المقوّمات كالسفر والهجرة والمنفى، التجاذب بين الذكورة والأنوثة، علاقات الاتصال والانفصال سواء في المكان الأول أو الثاني.
4. جاءت رواية (عازف الغيوم) لعليّ بدر لتعيد طرح نفس القضية القديمة ولكن من منظور جديد، تفاوتت فيه الرؤية بين ثوابت حافظت عليها ومتغيّرات أخرى قدّمتها، خاصّة عبر عنصري الشخصية والمكان.
5. تمثّلت الثوابت في هذه الرواية في تلك التقابلات بين مجموعة من الثنائيات: (التشدّد/التحرّر)، (التخلّف/التحضّر)، (الحب/الجسد) الذي ارتبط بشخصية المرأة الغربية التي طالما مثّلت المُشتهى وسقف الرغبة عند الرجل الشرقي.
6. طغت المتغيّرات على الثّوابت في الرواية والتي جسّدت مجتمعة معنى الانسلاخ والتخلّي عن الهويّة قوميّة ودينيّة وثقافيّة، أين وقفنا على صراع الأنا مع الأنا واغترابها في وطنها بمقابل تآلفها مع الآخر وذوبانها فيه وفي المكان البديل، أين استبدلت الشخصية الرئيسة مكان إقامتها الأصلي (العراق) بأرض الأحلام (بلجيكا) التي أراد الكاتب أن يجعل منها على لسان بطله مدينة فاضلة.

7. محاولة إثبات فكرة (الإسلام فوبيا) التي نشأت عن الرّبط بين الإسلام والإرهاب، حيث أضحى المسلمون في هذه الرواية معادلا موضوعيا للقتلة واللصوص وبائعي الحشيش.

8. رغم الرغبة والإقبال الشديد والاستسلام والانهزام الذي قدّمته الذّات للآخر في هذه الرواية (بلدًا وشعباً ونساءً)؛ إلاّ أنه في الأخير لم يكن سوى كيان دخيل بينهم وجب عليهم التخلّص منه ولو بعد حين كما حدث لنبيل حين هزمه نكرانه لذاته.

المراجع:

- إبراهيم الشبلي. (أفريل, 2019). شخصية الآخر في الرواية السورية (2000-2010). *قلمون للدراسات* (8).
- إبراهيم خليل الشبلي. (2019). *الذات والآ خر في الرواية السورية*. عمان: دار فضاءات، ط1.
- أحمد عبد الحليم عطية. (1997). *جدل الأنا والآخر*. مصر: مكتبة مدبولي الصغير، ط1.
- أركان حسين مطير. (2013). الاغتراب في الرواية العراقية المعاصرة. *مجلة كلية التربية الأساسية* (80).
- جمال مباركي. (2013). المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة- نماذج مختارة. *مجلة قراءات* (5).
- جمعة طيبي. (2016). *صورة المرأة الغربية في الرواية الجزائرية*. الجزائر: كلية الآداب.
- جميل حمداوي. (2011). *مستجدات النقد الروائي*. مكتبة الألوكة، ط1.
- حسن بحراوي. (1990). *بنية الشكل الروائي*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1.
- حلمي محمد القاعود. (1987). *موسم البحث عن هوية- دراسات في الرواية والقصة*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- زينة حمزة شاكر. (2020). صراع الهوية في الرواية العراقية. *مجلة جامعة بابل* (10).
- سالم معوش. (1998). *صورة الغرب في الرواية العربية*. بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1.
- سلام إبراهيم. (2012). الرواية العراقية- رصد الخراب العراقي. *مجلة تبيّن* (2).
- شرحبيل المحاسنة. (2012). نماذج الشخصية في روايات مؤنس الرزاز. *مجلة اتحاد الجامعات العربية* (12).
- صالح بن عويد الحربي. (2019). دراسات صورة الآخر في الأدب العربي وأثر ادوارد سعيد- دراسة مقارنة. *مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية* (20).
- صلاح فضل. (2003). *سرد الأنا والآخر عبر اللغة السردية*. المغرب: المركز الثقافي العربي، ط1.
- عبد الله إبراهيم. (2011). *السرد والاعتراف والهوية*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ط1.
- عروبة جبار. (2019). *التمثيل السردي للآخر في الرواية العربية*. البصرة: كلية الآداب.
- علي بدر. (2016). *عازف الغيوم*. إيطاليا: منشورات المتوسط، ط1.
- فتحي أبو العينين. (1999). *صورة الآخر- العربي ناظرا ومنظورا إليه*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1.
- فرج عبد القادر طه. (1982). *معجم علم النفس والتحليل النفسي*. بيروت: دار النهضة، ط1.
- ماجدة حمود. (2013). *إشكالية الأنا والآخر- نماذج روائية عربية*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة.
- محمد التنوجي. (1999). *المعجم المفصل في الأدب*. بيروت: دار الكتب العلمية،ط3.
- مصطفى فاسي. (2006). *البطل المغترب في الرواية العربية*. الجزائر: كلية الآداب واللغات.
- ميجان الرويلي، سعد البازعي. (2002). *دليل الناقد الأدبي*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط3.
- نجم عبد الله كاظم. (2013). نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة. *مجلة كلية الآداب* (71).

سير ذاتية للمؤلفين

د. زوليخة حنطابلي أستاذ محاضر أ بقسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات بجامعة يحيى فارس المدية، تخصص دراسات نقدية. من مواليد 1982 بالمدية، مسؤولة شعبة الدراسات النقدية بميدان اللغة والأدب العربي.

أستاذ بجامعة المدية منذ 2016، لها عدة مشاركات بملتقيات ومؤتمرات وطنية ودولية. عضو اللجنة العلمية بعدة مجلات كمجلة اللغة الوظيفية بجامعة الشلف، مجلة اللغة العربية بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، مجلة التواصلية بجامعة المدية...، مساعد رئيس التحرير بمجلة نص جامعة أم البواقي، أمينة التحرير بمجلة مساقات جامعة المدية... ولها عدة منشورات ومقالات في الأدب والنقد والرواية.